النكبة والرواية

فخري صالح
ناقد ومترجم أردني

اشتغل المتن الروائي العربي، والفلسطيني خاصةً، منذ احتلال فلسطين وقيام الدولة الصهيونية عام 1948، على إنجاز نص سردي متخيل ينطلق من نكبة فلسطين والأحداث المصاحبة لها، من عمليات تطهير عرقي وتهجير قسري وشتات دفع الفلسطينيين إلى جهات الأرض الأربع. وبغض النظر عن مستوى المدونة الروائية، الفلسطينية، وكذلك العربية، التي سعت إلى القبض على لحظة النكبة في الزمان والمكان، أو فيما يسميه ميخائيل باختين "الكرونوتوب الروائي"، فقد استطاعت الرواية العربية، وكذلك الروايات التي كتبها فلسطينيون بلغات أخرى غير العربية، أن تقدم رواية مختلفة عن الرواية الصهيونية لاحتلال فلسطين وقيام الدولة العبرية.

تشترك معظم السردية الروائية الفلسطينية في تقديم مشهد الحياة المستقرة، وحياة ما قبل العاصفة، أو الفردوس أو الجنة الفلسطينية، من خلال بناء عالم يستقى بعضه من المادة التاريخية المتوافرة

صحيح أن الرواية ليست تاريخاً، لكنها سعت إلى تقديم رواية مغايرة، رواية قادرة على سرد الحكاية الحقيقية للاستعمار الصهيوني الكولونيالي الإحلالي. وبهذا المعنى تراكمت لدينا نصوص أساسية يمكن النظر إليها بوصفها المدونة السردية المتخيلة لاحتلال فلسطين ونكبتها التي يمر عليها الآن سبعون عاما.

إن غايتنا هي النظر في المدونة الروائية حول النكبة، لا بوصف تلك المدونة تاريخاً، فلدينا الكثير من المصادر التاريخية التي سعت إلى نقد المدونة التاريخية الصهيونية وتفكيكها، وإثبات زيفها وأغراضها الأيديولوجية الفاقعة والدعائية الكاذبة، بل من أجل تحليل اللحظة السردية التي استطاعت أن تقدم نصوصاً روائية متخيلة حول النكبة. فالأدب، والمدونة السردية بشكل خاص، يمكن أن يقوم بنفسه كرواية مضادة تدفع القارئ إلى اكتشاف ما سعت الرواية الصهيونية إلى ترسيخه في العقول، الأجنبية على الأخص، وقدرة هذه المدونة على تغيير النظرة السائدة حول النكبة. ودور الرواية لا يقل عما أحدثته الكتابات التاريخية الفلسطينية والعربية حول النكبة، والتي سبقت عمل المؤرخين الإسرائيليين الجدد في فضح الرواية الصهيونية للنكبة.

ما قبل النكبة: إعادة بناء فلسطين

تسعى الرواية الفلسطينية، والرواية العربية التي تدور حول القضية الفلسطينية، إلى استعادة فلسطين التي كانت وجرى تدميرها ومحوها عام 1948، وإحلال إسرائيل محلها، من خلال عملية التدمير والاقتلاع الممنهج. وتستخدم الكتابة الروائية المصادر التاريخية، وكتب الرحالة، والوثائق، والشهادات الشخصية للفلسطينيين الذين عاشوا قبل النكبة، والتجارب الشخصية للروائيين أنفسهم، من أجل بناء مادتها السردية التي تعمل من خلال التخييل وابتداع الشخصيات وتصوير الأحداث، على تركيب صور الحياة الفلسطينية التي انقطع تسلسلها وتدفّقها بفعل حدث النكبة. وتعود بعض الأعمال الروائية إلى الفترة التي امتد خلالها حكم العثمانيين للمنطقة العربية، وصولاً إلى فترة السفر برلك وتجنيد الفلسطينيين في الجيش العثماني للمشاركة في الحرب مع القوات التركية في الحرب العالمية الأولى، لتتولى، من خلال عملية التخييل واصطناع الأحداث، وصفَ الحياة الممتدة على أرض فلسطين. وهذا ما نعثر عليه بصفة خاصة في رواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصرالله التي تغطي مساحة واسعة من الزمن الفلسطيني وصولاً إلى لحظة السقوط وتفرق الفلسطينيين "أيدي سبأ" بتعبير إميل حبيبي. فغاية مشروع إبراهيم نصرالله الروائي في "زمن الخيول البيضاء" هو تقديم سردية مضادة للرواية الصهيونية، التاريخية والتخييلية، حول الوجود الفلسطيني. ولهذا تبدأ سردها من لحظة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حيث يربض الاحتلال التركي لفلسطين، والمشرق العربي عامة، ويعاني سكان قرية الهادية، التي تبدو في السرد موازيًا لفلسطين، من ظلم العثمانيين وقهرهم، لتنتقل الرواية بعدها إلى زمن الانتداب وصولاً إلى لحظة سقوط فلسطين التي دافع فيها أهالي الهادية عن قريتهم رغم خيانة الزعامات العربية وفشل الزعامات الفلسطينية التقليدية، ومساعدة الإنكليز اليهود للاستيلاء على فلسطين بعد انتهاء الانتداب (يعود نصرالله إلى لحظة سابقة في التاريخ الفلسطيني، إلى نهايات القرن السابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر في "قناديل ملك الجليل").

وتشترك رواية حسن حميد "أنين القصب" مع "زمن الخيول البيضاء" في تصوير الحياة الفلسطينية قبل النكبة، وفي زمن يبدو، رغم سرمديته، أقرب إلى الحياة الفلسطينية في جريانها قبل انفجار الصراع بين العرب واليهود خلال فترة الانتداب البريطاني. الأمر نفسه نعثر عليه في رواية عبدالله تايه "قمر في بيت دراس" التي تبدأ سردها من لحظة انهيار القوات العثمانية على مشارف مدينة غزة، وعودة أحد أبناء قرية بيت دراس، الذي كان جنديًا في الجيش العثماني، إلى قريته مهزوماً حالماً بالذهاب إلى إسطنبول مع قائده التركي. ويفعل جمال ناجي الشيء نفسه في روايته "غريب النهر" التي تحكي عن عائلة هاجرت من قرية العباسية عام 1948 والتجأت إلى منطقة غور الأردن. لكن الرواية تعود بنا إلى زمن العثمانيين ساردةً حكاية أحد أبناء العائلة الذي ضاع في السفر برلك وعاد أبناؤه باحثين عن جذورهم ووطنهم. أما ليلى الأطرش فتعود في روايتها "ترانيم الغواية" إلى زمن الدولة العثمانية وظهور التوجهات القومية بين مواطني الخلافة العثمانية من العرب، وازدياد بطش القائد التركي جمال باشا السفاح، حيث تقدم صورة فلسطين ما قبل النكبة من خلال سرد تاريخ عائلة مسيحية مقدسية.

غرافيكس «الجديد»

تسعى الأعمال الروائية الفلسطينية، التي تبدأ سردها من نقطة سابقة على زمن الانتداب البريطاني، إلى تصوير الحياة الفلسطينية، رغم متاعب الحياة اليومية والصراع مع الدولة العثمانية، في أواخر أيامها، إلى التهيئة لكتابة لحظة الخروج الكبير للفلسطينيين من بلادهم. وتحضر في المتن الروائي عناصر الطبيعة والحياة المستقرة وجريان العادات والتقاليد الممتدة، وارتهان الإنسان الفرد للجماعة، وسيادة نمط من الإقطاع الزراعي الذي يتفاوت وصفه في الروايات ما بين نمط الإقطاع الذي يمتلك أجساد الفلاحين وقوة عملهم، والإقطاع الذي يقوم على حيازة ملكية الأرض دون ظلم الفلاحين الذين يعملون عليها (كما يروي أنور حامد في روايته "يافا تعد قهوة الصباح"). وبغض النظر عن المواقف الأيديولوجية التي تتخذها الأعمال الروائية المكتوبة عن مرحلة ما قبل النكبة، أو التي تفتتح روايتها بوصف الزمن الممتد الواسع، أو القصير، الذي يسبقها، فقد حرصت على بناء مشهد فردوسي للحياة الفلسطينية، أو على الأقل مشهدٍ تجري فيه الحياة في زمن لا تقطعه سوى عثرات الحياة اليومية المعتادة.

تشترك معظم السردية الروائية الفلسطينية في تقديم مشهد الحياة المستقرة، وحياة ما قبل العاصفة، أو الفردوس أو الجنة الفلسطينية، من خلال بناء عالم يُستقى بعضه من المادة التاريخية المتوافرة، بأشكالها المختلفة، من كتابات تاريخية ومذكرات الرحالة وسير الأفراد الفلسطينيين والأجانب الذين عاشوا في تلك الفترة، حيث يسعى الروائيون إلى تصوير مأساة الخروج والشتات والدفع العنيف باتجاه المنفى.

هكذا تبدو الحياة، رغم متاعبها اليومية وصراعاتها وهزائمها الفردية، في نصوص تعيد بناء الحياة الفلسطينية قبل صدور وعد بلفور وحلول الانتداب البريطاني محل الدولة العثمانية الراحلة.

إنها الحياة الطبيعية التي يحياها البشر في أوطانهم التي عاش فيها أجدادهم منذ مئات السنوات وزاولوا فيها أعمالهم اليومية التي قاموا بها على مدار الزمان.

انتصار التخييل وانهزام الواقع

محمد الأمين بحري
ناقد جزائري

من بين أكثر العلاقات الفنية توتراً هي تلك التي وصمت بآثار عميقة؛ تلك العلاقة المتوترة القائمة بين التاريخ وأبنائه العرب. ومن وجهة نظر أدبية، نجد أن كل ابن يرسم صورة أبيه من زاويته المخيالية والفكرية المغايرة أسلوباً وطرحاً ورؤية فنية عن الآخرين، فمنهم من كتب عن أبيه ملاحم للتغني والتمجيد، ومنهم من خلده في مآثر السرديات الكبرى، ومنهم من هجاه وشجب فعله. ومن شرنقة هذه العلاقة الأوديبية المعقدة، يحق لنا التساؤل؛ كيف خيّل العربي روائياً، أباه الذي لم يمنحه سوى الهزائم والخيبات والخذلان؟

حينما تحدث جورج لوكاتش عن علاقة الواقع بالمتخيل؛ لاحظ أن الروائي يشكل انسجام عالمه السردي من صلب التفكك الذي يعايشه في الواقع، ولعلنا إن بنينا فكرتنا حول الرواية التاريخية العربية على هذا الانعكاس الإيجابي؛ سنجد بأن سلوكية الاستجابة السردية تقتضي أن تكون كتابة التاريخ وبنائه المخيالي في الرواية العربية، هي عملية إعادة بناء لما عايشه الروائي في عالمه من جور التاريخ ووقائعه، وما تلقاه في مساره من هزائم لم تعد معالم مرجعية لهذا التاريخ وحسب، بل صارت معالم مشهودة للسردية العربية التي بلغت من شعرية تخييل الهزيمة في نصوصها، مسافات تضاهي عمق الجراحات التي تركها التاريخ في الذاكرة الجماعية، والاستلاب الذي سمم اللاوعي الفردي للمثقف الروائي.

● أولا- مفارقة التخييل الروائي

بين المسافتين يلتقي التاريخ بكل مفاهيمه الحوادثية والتوثيقية وشخصياته الاعتبارية، بفن الرواية بزخمها التخييلي الذي يستوحي قوته من طاقة التسريد التي تذيب في مصهرها كل ما دب على وجه التاريخ من فواعل، تشكل الموقف السردي من تبئير بعضها، وتسجيل أبرزها أثراً وأكثرها إثارة ووخزاً لذائقة الروائي وذاكرته، ومن بين تلك المثيرات الواقعية يتشكل فنياً ما يسمّى الخيارات السردية، التي تشكل الموقف والرؤية الإبداعية من العالم، والتي يطرح حولها النقد الكثير من الاستفهامات:

– هل يمكن للرواية بطاقتها التسريدية أن تمنح فنياً صورة موضوعية لأيّ شخصية أو واقعة تاريخية يستدعيها خطابها؟

– هل يملك التخييل في حبكاته وتوجيه مصائره السردية مبررات لما لم يتفق حوله الناس في الواقع ولم يبرره التاريخ؟

– في لحظة التسريد هذه؛ هل يفي روائي التاريخ للتاريخ الذي يستدعيه في نصه، أم لموقفه السردي منه؟ أم لفن الرواية والتخييل الذي يشرع أبواب التاريخ على كل المكاشفات والشكوك والألاعيب السردية، بما هي السمة التي تجعل من كل عمل امتلك زمامها، عملاً روائياً؟

– هل يمكن تحقيق الالتقاء بين صفحات السرد، بين ما تناثر من شتات على صفحات التاريخ؟

إننا أمام إشكالية يشبه الجميع فيها بين التاريخي والروائي، فكرة اختلاق فضاء برزخي يلتقي فيه الكائن المتحقق والممكن الافتراضي، في لحظة تقاطع وانسجام لا تتحقق خارج فرصة التخييل السردي التي يقتنصها روائي مصاب بتاريخه، وفي طبعته العربية، مهزوم في تاريخه.

● ثانياً- التأسيس العربي ومساءلة تاريخ الأسلاف

عاج أب الرواية التاريخية جورجي زيدان، يشرع بوابات التاريخ العربي الإسلامي، على أسئلة عصرها وعصرنا معاً، ويبث في زخمها الحوادثي مؤوّلات شتى من صلب منطق التخييل، مقيماً حوارات عدة مع التراث العربي الإسلامي، ووضع في مضامين رواياته التاريخية، بنوداً استشفها النقاد بحصافة؛ لصياغة خصوصيات الرواية التاريخية العربية، والتي رسمت الحدود الفنية بين هذا النوع الأدبي وليد المجتمع الحديث، وبين أنماط سابقة عملت أدبياً على أرخنة بعض الظواهر التراثية، كالمقامة والقصة والأدب والكتابة الملحمية، إذ لم تعد الرواية التاريخية في معالجتها للماضي، تهدف -كما الملحمة- إلى التغني به وتمجيده، بل إن استدعاء الماضي إلى زمن الحاضر يطرح أمام الأديب والأدب والقارئ معاً، قضايا تجعل من مخاطبة التاريخ، ذات وظيفة فنية وفكرية ونقدية، وتمنحه أهمية استراتيجية في مساءلة الحاضر، كون الماضي قد جاء ليقرأ الحاضر، ويلامس قضاياه الراهنة، ويتجه برؤياه إلى المستقبل، وليس الماضي المستعاد كما يعتقد.

فالتاريخ في الرواية تموقف لراهن الكتابة، وهدف من أهدافها الفنية، كما يمكن أن يكون في أيدي بعض الروائيين وسيلة لتحقيق غايات أيديولوجية، ومكاسب انتمائية أو تكتلية تخدم بعض القطبيات في العالم، وهي بهذا تتجاوز في رسائليتها، أدبية الأدب، وروائية الفن الروائي، إلى مواطن وغايات استراتيجية في حياة من جعلوا الكتابة وسيلة للاصطفاف الأيديولوجي، والاستغلال المصلحي، وكلها غايات خارج روائية، لكنها تُنجز باسم الرواية التاريخية، حينما يوظف التاريخ باعتباره وسيلة، وليس غاية فنية وفكرية راجعة، وقيمة مضافة إلى الأدب والفن والتموقف منهما.

على شتات الغايات المختلفة من استحضار التاريخ في الرواية، تفرّق الروائيون العرب في تناولهم لهذه التيمة فمنحوها تشكيلات وألوان وأساليب تجريبية تجاوز الابتكار فيها المحاكاة، وقد احتد التاريخ وتغوّل في الكتابة الروائية بعد هزيمة (1967)، أو النكبة العربية، التي أخذت بثورها تستشري في جسم الرواية التي عبّرت عن الوطن المهزوم بعديد الصور والمشاهد والأساليب، تسجيلية وواقعية ورمزية. حيث لم يعد الروائي العربي بعد هذه الرزية التاريخية قادراً على إخفاء ندوبه، أو مواقفه السردية فيما يكتب.

وبعد تمظهر التاريخ المهزوم في كل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية، برز من بين أبنائه من الروائيين العرب؛ من وظّف التاريخ الحوادثي في أعماله بصورة تسجيلية لخدمة قضية وطنية، وقومية في صورة أعمال غسان كنفاني، التي لم تكن تاريخية محضة، بقدر ما كانت أدباً للقضية، التي تسكن الكاتب، بأسلوب بوليسي تراوح بين البوليسي والرمزي. بمسحة قومية وسمت كتاباته كما وصمت عصره. لتتعدد بعده النماذج والصور السردية في التعبير المخيالي عن الهزيمة التاريخية، في الرؤى السردية لأبرز الروائيين العرب.

تهميش الأحداث في الرواية التاريخية

بعد تمظهر التاريخ المهزوم في كل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية، برز من بين أبنائه من الروائيين العرب؛ من وظّف التاريخ الحوادثي في أعماله بصورة تسجيلية لخدمة قضية وطنية، وقومية

● ثالثاً- التخييل التاريخي المقَنّع (مُدُن عبدالرحمن منيف)

بتوالي الهزائم، أخذت الرواية العربية طرقاً أخرى مختلفة في استقصاء العلل والبحث والعزاءات، ولو تخييلياً، وفردها أمام القارئ. في بداية الثمانينات، يأتي جهد عبدالرحمن منيف في خماسيته "مدن الملح": (التيه- الأخدود- تقاسيم الليل والنهار- المنبت- بادية الظلمات)، التي لا تعتبر رواية تاريخية أيضاً لكنها وظفت التاريخ الرمزي المشير بأكثر من إصبع سردي موجه إلى تاريخ السياسات والممالك العربية، ولعل قوة هذا العمل تنبع من القدرة الهائلة في توظيف الرمز والقناع، في وظيفة مزدوجة، بل وضدية؛ قوامها الحجب الذاتي للمقاصد الإشارية شكلاً، والتعرية السياسية الغيرية مضموناً، وفي كلا الشقين، يوغل الروائي في التنكيل بتاريخ الفساد السياسي والاقتصادي والأنظمة القبلية المتخلفة.